

العربانُ ودورهم في المجتمع المصري*

(إيمان محمد عبد المنعم)

مراجعة
جورج كنورة

بدايةً لا بد من الإشارة إلى أن كلمة العربان كما ترد في هذه الدراسة هي الكلمة المقابلة للبدو كما تعرف في بلدان أخرى ومن دراسات أخرى . وبالتالي فلا تحمل هذه الكلمة هنا أي معنى سلبي أو تحقيري كما قد يتبادر إلى الذهن . وقد استخدم هذا المصطلح كما ورد في وثائق الدولة العثمانية ومن ثم في وثائق الدولة المصرية الناشئة، دولة محمد علي باشا والحقبة التي سبقتها أو تلتها . وهي الحقبة التي تشكل المحيط الزمني والمكاني أيضاً لهذه الدراسة .

في التمهيدات تناولت الباحثة وباختصار شديد حلول العربان في مصر فأشارت إلى قدم عهدهم في تلك البلاد وإلى حلولهم فيها منذ بداية الفتوحات الإسلامية مع ما رافق ذلك من حل وترحال ولا سيما في أواخر العهد الفاطمي إذ أمرت قبائل منهم بالتوجه غرباً للتخلص من القحط وإنفاذاً للإرادة السياسية في التخلص منهم وفي الانتقام من بلدان المغرب التي رفضت طاعة الفاطميين بعد خروجهم منها إلى مصر . وبقية القصة معروفة وتفاصيلها في جل المصادر التاريخية لا سيما ابن خلدون . والمؤلفة لا تتواصل إلا ما له علاقة بالشأن المصري .

* إيمان محمد عبد المنعم: العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

بعودة قصيرة إلى الوراثة تشير الباحثة إلى تولي مشايخ العربان في العهد العثماني لمهام إدارية تمثلت في مسؤوليتهم عن الأرياف مما منحهم بعض الامتيازات وبعض النفوذ الذي تزايد في العهد المملوكي حيث ظهرت انقساماتهم وتحيزهم لأمراء المماليك المتخاصمين فيما بينهم والذين غالباً ما يمارسون سلطتهم خارج المدن بالواسطة. هنا تولي مشايخ العربان بعض الالتزامات على الفلاحين مما جعل هؤلاء بين نارين، نار سلطة المماليك التي تستعجل الضرائب ونار الملتزم الذي بدأ العلم لحسابه ولحساب أهل عشيرته وقبيلته، مما أفسد قسماً من الزراعة وأضر بطرق القوافل التجارية وبالطرق التي يستخدمها الحجاج بين مصر والحجاز حتى أن بعض الأهالي كان يحمل شكواه إلى السلطان العثماني بالذات الذي أمر بوضع حد لتجاوزات العربان المتكررة.

لا ينفي ذلك تمتع بعض المشايخ ببعد النظر وتفانيه في الحفاظ على الأمن وعمله على ازدهار الزراعة في بعض المناطق. أما إبان الحملة الفرنسية على مصر (حملة نابليون بونابرت) فقد لعب العربان دوراً مزدوجاً في التعامل معها تارة، وفي إبداء الطاعة لأمراء المماليك وتغليب إظهار الميل لهم تارة أخرى، حتى أن نابليون قد شعر بذلك وأرسل فرقاً خاصة لتأديبهم. بل لقد أعلن صراحةً وفي أكثر من جهة ومناسبة عن نيته في تأديبهم.

لديهم هنا تعداد القبائل بأسمائها ومعظمها وقد من شبه الجزيرة أو من المغرب (في رحلة ثانية) مختلطاً بالبربر. المهم أن هذه القبائل قد استفادت من فترة الفوضى التي أعقبت انسحاب جيش نابليون وسبقت تعزيز سلطة محمد علي الذي شرع بترسيخ سياسة خاصة تجاه العربان الذين اعتبرهم إلى حد ما من جملة خصومه وذلك بسبب مساندة بعض مشايخهم لأمراء المماليك. وبهذا العدد راح محمد علي يستميل المشايخ ويسكنهم في القاهرة ليبقيهم تحت رقابته أولاً وليكونوا رهائن لديه في حال ثار أتباعهم أو في حال انقلبوا عليه. كما استغل أيضاً الخلافات القبلية - القبلية بمساندته لهذه القبيلة ضد تلك بهدف إضعافهم أو التخلص من أكبر عدد منهم بأقل قدر من

الخسائر. وقد تسنى له تحقيق النجاح في ذلك أكثر من مرة. إلا أن المشكلة الأكبر تظل ماثلة في التهديد الذي يشكله العربان على أمرين اثنين: الزراعة القريبة إليهم والمواصلات التي بإمكانهم تهديدها إن في البر أو في الملاحة النهرية (عبر النيل بالطبع). فالعربان في معظمهم يقطنون عند حدود الصحراء ويشكل البدو المستقرون والعاملون في الزراعة نقطة الفصل بينهم وبين المدن في الداخل. هذا من جهة. أما من جهة أخرى فإن البدو أو العربان مضطرون وإن موسمياً للتوجه نحو الأراضي الزراعية (حالات الجفاف مثلاً) مما يشكل تهديداً مباشراً لهؤلاء الذين يقعون بين مطرقة البدو وسندان الدولة. من هنا تجد السلطة نفسها على حالة شديدة التأهب لشن الغارات على البدو، بهدف إبعادهم قدر الإمكان عن الأراضي المزروعة التي تمتد المدن بالغلغل وتمد خزينة الدولة بأموال الضرائب، إذ غالباً ما تكون هذه الأراضي أرض التزام توجب تسديد مكوس معينة. إلى جانب ذلك عانى أصحاب القوافل التجارية من تهديد العربان (تجار القمح أو البلح بحسب المواسم) بل إن بعض العربان كان يقوم بسرقة المحاصيل وتهريبها إلى الخارج مما يشكل تهديداً وتحدياً للسلطات القائمة، كذلك شكلت منازعات العربان فيما بينهم (سرقة المواشي، خطف الفتيات، الارتحال إلى مناطق تخص قبائل مختلفة) سبباً مباشراً لتدخل السلطات لفض الخلافات وإثبات الهيبة. هذا مع العلم أن السلطة كانت بحاجة شبه دائمة لخدمات العربان في نقل الذخائر وللاستفادة منهم في معرفة الطرق والتشعبات.

في إطار عمله شكل محمد علي إدارة عسكرية خاصة أو متخصصة لمتابعة شؤون العربان وفض خلافاتهم والاقتصاص ممن يعمد إلى إشاعة الفوضى أو التعدي. علماً أنه اتبع سياسة حكيمة كأن يستمع إلى شكاويهم وأن يقوم أيضاً بتحصيل حقوقهم من بعضهم بعضاً، كما قام بمنع تعدي الجند على أفرادهم أو على مشايخهم. مما أسهم في مرحلة أولى في كسب ودهم وردعهم حيث يكون الردع لازماً أو مطلوباً.

أما المرحلة الثانية في سياسة محمد علي فكانت توطين البدو. وقد

أصبح ذلك ممكناً بفضل عدة عوامل. منها اتساع الرقعة الزراعية بمد قنوات الري إلى حدود الصحارى. واعتماد زراعات نقدية (يمكن بيعها بدل تبادلها مع سلع أخرى) وصناعية بدل الغلال والحبوب. وتشجيع البدو على مزاوله الزراعة والاندماج بالحياة العامة وحرص السلطات على تأمين الطرقات بكل الوسائل مما حرم العربان من بعض أنماط معيشتهم (الغزو مثلاً). إلا أن ذلك لا يعني أن هذا التوطين كان سهلاً. فهناك أولاً ممانعة البدو بطبيعتهم لنمط حياة جديد لما له من تأثير على كيانهم الاجتماعي وعلى تركيبته الاجتماعية وعلى نظرتهم للدولة وللنظام بشكل عام.

ومع ذلك فقد أصدر محمد علي عدة أوامر، منح العربان بموجبها أراضي زراعية واقعة عند حدود الجبال أو على أطراف الصحارى. وقد عرفت هذه الأراضي بالإبعديات. وقد أمرهم بإعمارها وزراعتها وعدم تركها أو بيعها أو استبدالها بسواها أو حتى تأجيرها. الهدف من ذلك أن يقوم البدو بأنفسهم بإدارة هذه الأراضي وإعمارها والتوطين فيها. في مرحلة أولى لم يعط مشايخ القبائل صكوكاً بتملك هذه الأراضي. ثم إن بعضهم قد حصل عليها لقاء خدمات معينة. وثمة من حصل على الأراضي بموجب نظام يعرف بنظام العمدة، ويقوم ذلك على الالتزام بتقديم ضريبة الأرض إلى السلطات. وفي حالات التمتع كانت السلطات تعتمد إلى إجراءات تأديبية بلغت حد ترحيل البدو من منطقة إلى أخرى إما لإضعافهم أو لتجميعهم وتدريبهم على زراعات معينة. وإلى جانب ذلك كانت السلطات تقوم بتسجيل حركة ارتحال البدو والقيام بعمليات إحصاء دقيقة تتناول أعدادهم وأعداد مواشيهم وما يملكون من أسلحة. وكانت إلى جانب ذلك تلزم البدو المرتحلين بأخذ إجازات بذلك. بعبارات مختصرة، لقد أخضعت الدولة البدو لسياستها وجعلتهم جزءاً منها وقامت بمساواتهم بالزراع، أي بمن يرون أنهم كانوا على عداء كامل معهم، أو أقله على عداء مع طريقة حياتهم ونمط معيشتهم. وتأكيداً على مصداقيتها عمدت السلطة لمعاقبة كل مخالفة تخرج عن إطار القوانين المعتمدة.

لا يعني ذلك أن العربان قد قبلوا خطوات التوطين هذه بسهولة. فثمة

موانع تجعل هذا الهدف هدفاً صعب التحقيق. منها أولاً ميلهم الطبيعي إلى حياة الصحراء بكل ما تعنيه. واعتقادهم أنهم أكثر نبلاً ومحتداً من الزراع ومن العاملين في الحقل الزراعي. ولقد أبدى البدو احتقاراً دائماً للزراعة ولل فلاحين وامتنعوا عن مصاهرتهم أو القبول بذلك. وكانوا يعتبرون أراضي الفلاحين أراضي احتياط بالنسبة لهم. فإذا ما ساءت مواسمهم أو شحت مياههم ومراعيهم فالانتقال إلى أراضي الفلاحين بالغزو وينقل الماشية إليها كان بمثابة الأمر الطبيعي. بل إن البدو أقاموا فيما بينهما سلماً خاصاً بالقيم. فالذين قبلوا منهم (أول الأمر) الالتزام بعمل زراعي هم من الخارجين على قانونهم الطبيعي. وكانوا في غالب الأحيان موضع احتقار من قبل الآخرين.

كل ذلك لم يحل دون تحقيق أجزاء كبيرة من سياسة محمد علي في توطينه للقبائل مجتمعة أو متفرقة. وقد أدت إغراءات السلطة لمشايخ العربان في تحول هؤلاء إلى زعماء حقيقيين ما لبثوا أن نقلوا مركز سلطتهم من البادية إلى قلب المدينة. فالمشايخ قد أعفوا من ضرائب معينة. وظلت إلى جانب ذلك عطاءات أفرادهم تذهب إليهم، مما زاد في تكديسهم للثروة ومن تحويل قسم منها إلى عقارات ومزارع وأبنية وقصور. بل إن بعض المشايخ قد تولى مهام عسكرية وإن اقتصر ذلك على ما يخص تدبير شؤون البدو وتأمين علاقة مريحة مع الفلاحين. فالسلطة لم تكن لترتاح كلياً إلى ولاء البدو المشكوك به بحكم الممارسة. ومع الوقت وبإصرار من إدارة محمد علي ظهرت بعض العائلات البدوية التي أسست مزارع مزدهرة. وكذلك أقبل أفراد البدو على المدارس بل إن بعض زعماء البدو قد أسهم ببناء المدارس محتفلاً بذلك وسط مظاهر احتفالية بالغة. ومع الوقت تحول أمراء البدو إلى قطاع هام وسط الطبقة الوسطى فظهر أعيان القبائل فئة وسيطة بين السلطة وبين الأطراف.

في الإطار نفسه تمكنت السلطات المصرية بشتى الطرق من استخدام البدو في أعمال متعددة. فعهدت إليهم بالتزامات معينة، مثل شق الطرق وحراسة القوافل. أو تأديب العصاة حتى لو كلف الأمر تصارع القبائل مع

بعضها وكل ذلك لقاء هبات معينة إما نقدية وإما توزيع مساحات معينة من الأراضي. بل هي عهدت إليهم بحماية السواح وتأمين أعداد معينة للخدمة في جيش البلاد (الجهادية)، خاصة في فترات الحروب التي شنها محمد علي باشا، ومن ثم خلفاؤه في الأراضي السورية (فلسطين وسوريا ولبنان). وكان على مشايخ البدو تأمين العدد المطلوب منهم تحت طائلة تأديبهم في حال التمتع، إما بحرمانهم من إقطاعات معينة أو بنفيهم وتغيير مراكز إقامتهم.

خلاصة القول؛ لقد استطاع محمد علي باشا، وعلى مر السنين أن يدجن البدو وأن يحولهم من قوة تصارع الدولة إلى قوة تساندها. ومن فئات لا ترى في الزراع والفلاحين إلا أعداء إلى فئات ترى في العمل الزراعي عملاً إن لم يكن بديلاً فردياً لنمط حياتهم.

تعقد الباحثة في كتابها فصلاً أخيراً تناول فيه حياة البدو الاجتماعية. إلا أنها لا تقوم في أغلب الأحيان إلا بتقديم توصيف مقتضب عن بعض مظاهر حياتهم كأكلهم ومشربهم وملبسهم وتصرفاتهم في مناسبات معينة كالأعياد وحفلات الزواج والولائم والأعراس وشكل ممارستهم لعباداتهم ولتدينهم عامة. إلا أنها لا تقدم إلا فقرات موجزة دون إبراز ما يخرج من مألوف عادات البدو. كما تشير أيضاً إلى نمط ممارستهم لعاداتهم وأشكال تقاضيهـم فيما بينهم وإلى إبراز نمط القيادة في مجتمعهم القائم على تبعية المرأة وقيادة الرجل مع ما يتبع ذلك من تفضيل للأطفال الذكور مع ما لذلك أيضاً من سبب اقتصادي ما دامت الفروسية والقوة سبباً من أسباب اللحمـة والمنعة والعزة داخل هذا البناء الاجتماعي. أما التفاصيل فلا تخرج في جملتها عما هو مألوف في حياة البدو قبل محمد علي باشا وبعده.

أخيراً: قد يكون الكتاب جديداً في موضوعه إلا أنه يقع موقعاً وسطاً بين الاجتماع والتاريخ. فهو يقدم في معظم الأحيان تقريراً عن سير الحياة البدوية في مرحلة تاريخية معينة مع مراعاة إبراز تحول هذه المسيرة نحو نوع من السكينة. كل ذلك بفضل الإجراءات (الحكيمة) التي اتخذها محمد علي. بعبارات أخرى لقد أبرزت الباحثة تماشي البدو مع هذه الإجراءات وتفاعلهم

معها بالسلب أحياناً وبالإيجاب أحياناً أخرى حتى تسنى في نهاية الأمر تحقيق الهدف الأبعد من هذه السياسة: تأهيل البدو وتحويلهم من حياة اجتماعية إلى حياة اجتماعية أخرى. إلا أن أسلوب الباحثة القائم على تراكم الأخبار وتكرارها لا يسمح بسهولة باستجلاء مراحل هذا التطور. فالتأليف يقوم على نوع من الأرشفة الذي يقدم الكم على إظهار معالم التحول. مع ذلك فالمادة غزيرة ولذلك عمدنا لا إلى الاختصار بل إلى إبراز المراحل حتى لو اضطررنا أحياناً إلى التساهل مع التفاصيل الغزيرة التي جمعتها الباحثة من الأرشيف المصري ومن الأخبار المتناقلة عن حملة نابليون ومن كتب المؤرخين والرحالة والعلماء الذين رافقوا حملة نابليون.

